

أضواء البيان

@ 419 @ اعلم أولاً أن لفظ (ما كان) يدل على النفي ، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع ، كقوله تعالى : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ دَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } ، وتارة يدل على التعجيز ، كقوله تعالى : { وَاللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مِّنْ خَلْقٍ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَاقًا ثِقًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ مِّنْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا } . وتارة يدل على التنزيه ، كقوله هنا : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } وقد أعقبه بقوله { سُبْحَانَہُ } أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله .

فقوله { مَا كَانَ لِلَّهِ } بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه جل وعلا أن يتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . والآية كقوله تعالى : { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } . وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم (عيسى ابن الله) وما نزه عنه جل وعلا نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع أخر ، كقوله تعالى : { إِنْ زَعَمَ الْمُشْرِكُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } إلى قوله { إِنْ زَعَمَ اللَّهُ إِلَّا هُوَ وَاحِدٌ سُبْحَانَہُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } . والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة ، كقوله تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدْياً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًى أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة (الكهف) . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { إِذَا قَضَى أَمْرًا } أي أراد قضاءه ، بدليل قوله : { إِنْ زَعَمَ قَوْلُنَا لَشِدَّةٍ إِذَا أَرَادَ نَاهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، وقوله تعالى : { إِنْ زَعَمَ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } ، أي إذا أردتم القيام إليها ، وقوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَغِزْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } أي إذا أردت قراءة القرآن ، كما تقدم مستوفى . .

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصدها : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ
وَلَدٍ } زيدت فيه لفظة (من) قبل المفعول به لتأكيد العموم . وقد تقرر في الأصول أن
النكرة في سياق النفي